

(البرهان): « وأما أرايتك فقد وقعت هذه اللفظة في سورة الأنعام في موضعين وغيرها وليس لها في العربية نظير، لأنه جمع فيها بين علامتي خطاب وهما التاء والكاف. والتاء اسم بخلاف الكاف، فإنها عند البصريين حرف يفيد الخطاب، والجمع بينهما يدل على أن ذلك تنبيهاً (كذا) على مبناها عليه من مرتبة وهو ذكر الاستبعاد بالهلاك، وليس فيما سواها ما يدل على ذلك فاكتفى بخطاب واحد.

قال أبو جعفر بن الزبير: « الإتيان بأداة الخطاب بعد الضمير المفيد لذلك تأكيد باستحكام غفلته، كما تحرك النائم باليد والمفرط الغفلة باليد واللسان، ولهذا حذفت الكاف في آية يونس [٥٠] لأنه لم يتقدمها قبلها ذكر صمم ولا بكم يوجب تأكيد الخطاب، وقد تقدم قبلها قوله: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ ﴾ [يونس].

إلى ما بعدهن فحصل تحريكهم وتنبيههم بما لم يبق بعد إلا التذكير بعذابهم انتهى<sup>(١)</sup> ومثل هذا الذكر والحذف قوله تعالى:

﴿ يَتَأَهَّلَ الْكَتَّابُ لِمَ تَعَاجُونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِي ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [١٥] هَتَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجِبْتُمْ فِيْمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُعَاجُونَ فِيْمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران].

وقوله:

﴿ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ [١٧] يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ [١٨] هَتَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾ [النساء].

فذكر (ها) التنبيه قبل الضمير وقبل اسم الإشارة في آية آل عمران: (ها أنتم هؤلاء) لأنه أراد أن يقرعهم ويزيد في تنبيههم ولومهم لأنهم جادلوا بالباطل وهم يعلمون، فكرر التنبيه مرة قبل الضمير ومرة قبل اسم الإشارة فقال: (ها

(١) البرهان ٤/١٥١-١٥٢.

أنتم هؤلاء حاجتكم)، وكذلك في آية النساء فقد كرر تنبيههم ولومهم ليتعظوا فلا يقفوا مثل هذا الموقف وأنت ترى أن الموقف يتطلب الزيادة في تنبيههم ووعظهم، بخلاف قوله تعالى مثلاً: (ها أنتم أولاء تحبونهم) فإن الموقف لا يحتاج إلى زيادة في التنبيه واللوم، فإنه خطاب للمؤمنين. قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ مِن دُونِكُمْ لَا يَأُولُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوًا مَا بَدَتِ الْبَعْضَاءُ مِن آفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخْفَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٨١﴾ هَٰئِنتُمْ أَوْلَاءُ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴿٨٢﴾ [آل عمران].

فأنت ترى أن الموقف مختلف عما في الآيتين السابقتين، وهوليس موقف تقريع ولوم كما كان ثم.

وقد لا يحتاج الموقف إلى التنبيه فلا يذكره، وذلك نحو قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام مخاطباً ربه: ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يٰمُوسَىٰ ﴿٨٢﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَتْرَىٰ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٣﴾ [طه].

فلم يأت بالتنبيه لأنهم غير حاضرين.

فأنت ترى أن التنبيه أتى به في المكان المناسب بالقدر الذي يحتاج إليه. فقد يكرر أو لا يكرر أو لا يذكر التنبيه بحسب الحاجة إليه<sup>(١)</sup>.

ومن ذكر التنبيه وعدمه قوله تعالى:

﴿ وَإِن يَخِذْ لَكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ﴿٨٤﴾ [آل عمران].

وقوله: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴿٨٥﴾ [البقرة].

فلم يجيء بـ (ها) التنبيه في الموطنين في حين قال:

﴿ أَمَّن هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصُرُّكَ مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِن الْكٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٨٦﴾ أَمَّن هَٰذَا الَّذِي يَرُفُّكَ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُوًّا فِي عَتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٨٧﴾ [المُلك].

(١) انظر معاني النحو باب أسماء الإشارة.

فجاء ب (ها) التنبيه. وسبب ذلك - والله أعلم - أن التحدي في الآيتين الأخيرتين أشد وأقوى، وهو واضح من السياق. فالآية الأولى خطاب للمؤمنين. قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِنْ يَضُرُّكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران].

وآية سورة المُلْك في الكلام على الكافرين وهو في سياق التخويف من قدرة الله وبطشه قال تعالى: ﴿أَأَمِنُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦٦﴾ أَمْ أَمِنُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ ﴿١٦٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٦٨﴾ . . . أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنْ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿١٦٩﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْفَعُ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُمْ بَلَ لَجُوفٍ عَنُورٍ وَنُفُورٍ ﴿١٧٠﴾﴾ [المُلْك].

فالسباق والجو مختلف في الآيتين، فالأولى مقام رحمة ومسح على جراح المؤمنين ومقام عفو ومغفرة بعد معركة أحد. وأما الثانية فمقام ترهيب وإنذار وتخويف وتحذير فجاء ب (ها) التنبيه زيادة في التحذير والتنبيه وهو ما يقتضيه المقام.

وقد تقول: ولم قال في آية الكرسي: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ...﴾ ﴿٢٥٥﴾ [البقرة] من دون تنبيه في حين قال: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ...﴾ ﴿٢٦٠﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْفَعُ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُمْ...﴾ ﴿٢٦١﴾﴾ [المُلْك] فذكر التنبيه، والمقامان متشابهان؟

والحق أن المقامين مختلفان وليسا متشابهين، وذلك أن آيات سورة المُلْك في خطاب الكافرين - كما ذكرنا - وليس كذلك سياق آية الكرسي.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن مقام آية الكرسي مقام شفاعة، ومقام آية الملك مقام نصر ورزق، ومقام الشفيع يختلف عن موقف الناصر.

فقد قال في آية الكرسي: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ...﴾ ﴿٢٥٥﴾ [البقرة] والشفيع طالب حاجة مرتج قضاءها عالم بأن الأمر بيد من هو أعلى منه، فهو متلطف بسؤاله في

حين قال في سورة الملك: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ﴿٢٠﴾ . . . ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَكُمْ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ [المَلِك] وهذا كما ترى موقف نذّ وليس موقف شفيع . فالناصر من دون الرحمن والرازق إن أمسك الرحمن رزقه لا يكون إلا نذّاً لله سبحانه، تعالى الله عن الند، ولا يمكن أن يكون هذا لغير الله . ولذا سأل رب العزة قائلاً: من هذا الناصر الرازق من دوني؟ فزاد التنبيه . هذا علاوة على ما في هذا من السخرية من إله لا يعرفه رب العالمين!! .

فأنت ترى أن السياق في آية الملك يقتضي زيادة التنبيه، بخلاف آية البقرة . فما أعظم هذا الكلام وأجله!

ومن هذا الباب قوله تعالى في سورة الصافات على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَيُّفَكَاءَ إِلَهَةٌ دُونََ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات] .

وقوله في سورة الشعراء على لسانه أيضاً: ﴿وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ إِزْهِيَةٌ ﴿٢٦﴾﴾ إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٦﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُّهَا عَنْكُمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الشعراء] .

فقال في الآية الأولى: (ماذا تعبدون) وقال في الثانية: (ما تعبدون) .

وهناك فرق بين (ما) و (ماذا) في الاستفهام، فإن في (ماذا) قوة ومبالغة في الإستفهام ليست في (ما)، ففي قولك (ماذا فعلت؟) قوة ليست في (ما فعلت؟) ولعل ذلك يعود إلى زيادة حروفها . ويدل على ذلك الاستعمال القرآني<sup>(١)</sup> ومن ذلك ما جاء في الآيتين اللتين ذكرناهما . فإنه إنما جاء في الآية الأولى بـ (ماذا) وفي الثانية بـ (ما) لأن الأولى في موقف تحدّ ظاهر ومجابهة قوية، بخلاف الثانية، يدل ذلك على ذلك السياق .

فإن المقام في الأولى ليس مقام استفهام وإنما هو مقام تقريع، ولذلك لم يجيبوه عن سؤاله بل مضى يقرعهم بقوله: ﴿أَيُّفَكَاءَ إِلَهَةٌ دُونََ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الصافات] .

(١) انظر كتابنا: (معاني النحو) باب الاستفهام .

وأما في الثانية فهو في مقام استفهام المحاجة إذ قال لهم: ما تعبدون؟  
فأجابوه: نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين.

فسألهم: ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٦﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكَمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الشعراء].

فأجابوه قائلين: ﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء].

فأنت ترى أن المقام مقام محاجة بخلاف الآية الأولى فإنه مقام تحدُّ وتقريع ومجابهة.

ويوضح ذلك نهاية القصتين.

ففي آية الشعراء قال: ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ  
الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيَ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الشعراء - وما بعدها].

وأما في آية الصافات فانتهى السياق بتحطيم الأصنام وتحريقه بالنار.

﴿ فَرَأَى إِلَاءَ الْهَنَاقِ فَقَالَ آلَا تَأْكُلُونَ ﴿١١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿١٢﴾ فَرَأَى عَلَيْهِمْ صُرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿١٣﴾ . . .  
﴿ قَالُوا أَنْبَاءُ لَمْ بَيِّنْنَا فَاَلْقَوْهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿١٧﴾ . . . وما بعدها ﴾ [الصافات].

فثمة فرق كبير بين النهائيتين وبين السياقين. فجاء في مقام المجابهة وشدة التحدي بـ (ماذا) دون المقام الآخر الذي جاء فيه بـ (ما).

جاء في (درة التنزيل) في هاتين الآيتين: «للسائل أن يسأل عن زيادة (ذا) في قوله في الصافات (ماذا تعبدون) وإخلاء ما في الشعراء منها.

والجواب أن يقال: إنَّ قوله (ما تعبدون) معناه: أي شيء تعبدون؟

وقوله: (ماذا تعبدون) في كلام العرب على وجهين:

أحدها: أن تكون (ما) وحدها اسماً و (ذا) بمعنى الذي، والمعنى: ما الذي تعبدون. و (تعبدون) صلة لها.

والآخر أن تكون (ما) مع (ذا) اسماً واحداً بمعنى: أي شيء. وهو في الحالتين أبلغ من (ما) وحدها إذا قيل: ما تفعل؟ و (ما تعبدون) في سورة الشعراء إخبار عن تنبيهه لهم، لأنهم أجروا مقاله مجرى مقال المستفهم،

فأجابوه وقالوا: ﴿ قَالُوا تَعْبُدُوا أَصْنَامًا فَنُظَلُّ لَهَا عَظْمِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ فبه ثانياً بقوله: ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَ كُرْإِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾؟

وأما (ماذا تعبدون)؟ في سورة الصافات فإنها تقرّيع، وهو حال بعد التنبيه. ولعلمهم بأنه يقصد توبيخهم وتبكيتهم لم يجيبوا كإجابتهم في الأول. ثم أضاف تبكيته إلى تبكيته ولم يستدع منه جواباً فقال: ﴿ أَيَفْكَاءِ إِلَهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الصافات].

فلما قصد في الأول التنبيه كانت (ما) كافية. ولما بالغ وقرّع استعمل اللفظ الأبلغ وهو (ماذا) التي إن جعلت (ذا) منها بمعنى (الذي) فهو أبلغ من (ما) وحدها. وإن جعلها إسمياً كان أيضاً أبلغ وأكد مما إذا خلت من (ذا) «<sup>(١)</sup>» .

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ يَوْمَ نُقَلِّبُ وُجُوهَهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأحزاب].

فمد (السبيل) في حين قال في الآية الرابعة من السورة نفسها: ﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿١﴾ ﴾ [الأحزاب] فلم يمدّه.

وذلك أن الأولى في كلام أهل النار وهم يصطرخون فيها ويمدون أصواتهم بالبكاء، فجاء بالمدّ، وهو المناسب لمد الصوت بالبكاء ورفع، بخلاف الآية الثانية.

ومن هذا الباب قوله تعالى:

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [هود].

وقوله:

﴿ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَانَا كَأَنْتَ مِنَ الْغَافِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [العنكبوت].

(١) درة التنزيل ٣٣١.

فقد زاد (أن) بعد (لَمَّا) في سورة العنكبوت بخلاف سورة هود والقصة واحدة، وذلك أن سياق القصة في العنكبوت يقتضي هذه الزيادة من عدة أوجه، بخلاف سياقها في هود. فإنه أفاض في ذكر القصة في سورة العنكبوت أكثر مما هو في هود، فقد ذكر فيها من صفات قوم لوط السيئة ما لم يذكره في هود فقد قال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَلْحِسَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ ﴿٢٩﴾﴾ [العنكبوت].

ولم يزد في هود على أن قال: ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴿٧٨﴾﴾ [هود].  
ففضل في عمل السيئات ما لم يفصله في هود.

فلما كان المقام مقام إطالة وتفصيل في سورة العنكبوت ذكر (أن) لمناسبة سياق الإطالة والتفصيل بخلاف سورة هود.

ومن ناحية أخرى أن برم لوط بقومه وضيقة بهم في سورة العنكبوت، كان أظهر وأشد مما في سورة هود. كما يبدو أن ترقب لوط للخلاص من قومه في سياق العنكبوت كان أظهر مما في هود. يدل على ذلك عدة مواضع في القصة:

منها قوله في سورة العنكبوت: ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلِكَ إِلَّا أَمْرًا نَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَيْبَاتِ ﴿٢٢﴾﴾ [العنكبوت].

في حين قال في هود: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾ [هود].

فزاد في آية العنكبوت قوله: ﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ...﴾.

ومنها دعاؤه ربه أن ينصره على قومه بعدما كذبوه وتعجلوا العذاب قائلين: ﴿أَفَتُنَادِي بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت] فقال ﴿قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [العنكبوت] وليس الأمر كذلك في هود، فإنهم لم يصرحوا بتكذيبه ولم يدع لنفسه بالنصر. ومنها التصريح بلفظ التنجية ومجيء

الفرج في سورة العنكبوت مرتين، مرة مع سيدنا إبراهيم إذ قال ملائكة الله له في لوط: ﴿لَنْ نَجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تُهْمًا كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِيبِ﴾ [العنكبوت]. ومرة مع لوط نفسه، إذ قالوا له: ﴿إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا نَكَّ﴾ [العنكبوت] ولم يرد مثل ذلك في هود.

ولذا حسن ذكر (أَنْ) في العنكبوت دون هود مراعاة للتبسط في ذكر القصة والإفاضة فيها، وللدلالة على استطالة الوقت وطول الترقب والانتظار، وهو تعبير في غاية الجمال.

وشبيه بهذه الزيادة للانتظار والترقب قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف].

فزاد (أَنْ) بعد (لما) وذلك لمناسبة حالة الإنتظار والترقب التي كان يمر بها نبي الله يعقوب، فقد كان شديد الالهفة على رؤية ولده. ومن المعلوم أن الشخص في مثل هذه الحال يستطيل كل لحظة تمر به، ففصل بين (لما) ومجيء البشير وباعد بينهما إشارة إلى الشعور باستطالة الوقت وطول الانتظار. ولا يؤدي اتصال (لما) بالشرط ما يؤديه هذا الفصل الجميل.

جاء في (معترك الأقران): «فإن قلت: إن قوله تعالى: (فلما أن جاء البشير) لم يقع فيه تكرار فليم زيد (أن) ولم يأت على الأصل،؟

قلت: لما كان مجيء البشير إلى يعقوب عليه السلام بعد طول الزمن وتباعد المدة، ناسب ذلك زيادة (أن) لما في مقتضى وضعها من التراخي»<sup>(١)</sup>.

وذكر مصطفى صادق الرافعي أن المراد بذلك: «تصوير الفصل الذي كان بين قيام البشير بقميص يوسف، وبين مجيئه لبعده ما كان بين يوسف وأبيه عليهما السلام، وأن ذلك كأنه كان منتظراً بقلق واضطراب، تؤكدهما وتصف الطرب لمقدمه واستقراره غنة هذه النون في الكلمة الفاصلة وهي: (أن) في قوله: أن جاء»<sup>(٢)</sup>.

(١) معترك الأقران ٣/٣٥٩ وانظر ملاك التأويل ٢/٥٢٧.

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٢٦٣.



ونحو ذلك قوله تعالى في موسى عليه السلام: ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَمْتَلِكُنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ . . . ﴾ [القصص] فزاد (أن) بعد (لما) وذلك أن موسى لم يكن مندفعاً للبطش بالقبطي في هذه المرة فزاد (أن) للدلالة على التريث والتمهل، وفصل بين (لما) والفعل للدلالة على الفاصل في الزمن وعدم الاندفاع، بخلاف المرة الأولى التي اندفع فيها فجأة لنصرة صاحبه، ألا ترى كيف قال في المرة الأولى: ﴿ فَاسْتَعْتَهُ الَّذِي مِنْ شَيْعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ . . . ﴾ [القصص] فجاء بالفاء الدالة على التعقيب وعدم المهلة بين الاستغاثة والطعنة (فاستغاثه، فوكزه، ففضى عليه).

ومما يدل على تمهله وعدم اندفاعه في المرة الثانية تعنيفه لصاحبه قائلاً: ﴿ إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ [القصص] حتى ظن صاحبه أنه ينوي البطش به بدلاً من عدوه فقال له: ﴿ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَمْتَلِكُنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ﴾ [القصص]. فزاد (أن) للدلالة على ذلك.

وهذا نظير ما قبله كما هو واضح.

وقد يزيد كلمة أو أكثر في موضع، ولا يذكرها في موضع آخر، كل ذلك حسبما يقتضيه المعنى والسياق.

فمن ذلك قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [النساء].

وقوله:

﴿ وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء].

فقد زاد قوله: (ومقتاً) في آية النساء وذلك أن «متزوج امرأة أبيه فاعل رذيلة يمقت فاعلها ويشناً وتستخسه الطباع السليمة، فوصفت فعلته بالمقت، وسأوت الزنى فيما وراء ذلك»<sup>(١)</sup>.

(١) ملاك التأويل ١/ ٢٠٠.

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾

[التغابن].

وقوله :

﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ [الطلاق].

فقد زاد في التغابن قوله : (ويكفر عن سيئاته) دون الطلاق وذلك أن آية التغابن خطاب للكافرين وقد دعاهم إلى الإيمان فقال : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن] ﴿ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورَ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [التغابن].

ثم قال : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ﴾ [التغابن].

وأما آية الطلاق فهي خطاب للمؤمنين وقد دعاهم إلى التقوى فقال : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾ [الطلاق].

ثم قال : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ ... ﴾ [الطلاق].

فكان ذكر تكفير السيئات مع الكافرين الذين هم في معصية مستديمة وسيئاتهم غير منقطعة أولى من ذكرها مع المؤمنين.

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا تُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَنْ يُسْمِعَهَا كَآنَ فِي أُذُنَيْهِ وَقُرَءُ فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان].

وقوله :

﴿ وَيَلِكُلُ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [الجاثية] ﴿ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تَنْزِيلًا عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَآنَ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الجاثية].

فقد زاد في آية لقمان قوله : (كأن في أذنيه وقرأ) دون آية الجاثية، وذلك « أن آية الجاثية لما تقدم فيها قوله : ﴿ وَيَلِكُلُ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [الجاثية] يسمع ءآيات الله تنزل

عَلَيْهِ تَمَّ ﴿[الجائية] فوصفه بسماع آيات الله لم يكن ليطابقه ذكر الوقر في الأذن لأنه قد ذكر سماعه الآيات. والوقر مانع من السماع فلم يناسب الإعلام بالسماع ذكر الوقر المانع منه... .

ولما لم يقع ذكر سماع الآيات في آية لقمان وتقدم ذكر المشار إليه بقوله: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ ﴿[لقمان] وهذه زيادة مرتكب فناسبها ذكر زيادة الوقر، مع أنه لم يرد فيها ذكر سماعه الآيات كما ورد في آية الجائية. فازداد ووضح التلاؤم﴾<sup>(١)</sup>.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿[المائدة].

وقوله:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿[التغابن].

فزاد في الآية الأولى قوله: (واحدروا) وقوله: (فاعلموا) مع اتحاد ما تضمنته الآيتان فيما سوى ذلك.

وسبب ذلك والله أعلم أن آية المائدة سبقها الأمر باجتناب الخمر وما ذكر معها من المحرمات وما تجرّه عليهم هذه المحرمات من شرور فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿[المائدة] إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ ﴿[المائدة].

فناسب ذلك ذكر هذه الزيادة لتأكيد التحذير.

(١) ملاك التأويل ٢/ ٧٨٩-٧٩٠.

« وأما آية التغابن فلم يرد قبلها ما يستدعي هذا التأكيد، ألا ترى الوارد فيها من قوله تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن] فلما لم يرد هنا نهى عن محرم متأكد التحريم... لم يرد هنا من الزيادة المحرزة لمعنى التأكيد ما ورد هناك. فجاء كل على ما يجب ويناسب. وليس عكس الوارد بمناسب» (١).

وقد يزيد الجار والمجرور في موضع ولا يذكر نحوه في موضع آخر، فمن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى:

﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [الفتح] وقوله:

﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [المائدة].

فزاد (لكم) في آية الفتح ولم يذكر مثل ذلك في المائدة. والسبب أن الخطاب في سورة الفتح مختص بالمخلفين من الأعراب قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾ [الفتح].

فلما كان الخطاب مختصاً بهؤلاء زاد (لكم) لأن الخطاب موجه إليهم.

أما في سورة المائدة فالخطاب عام، وليس خاصاً بجماعة معينين قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [المائدة].

ألا ترى إلى قوله تعالى: (ومن في الأرض جميعاً) كيف عم أهل الأرض فلم يحسن أن يذكر (لكم) بل جاء الخطاب عاماً. جاء في (درة التنزيل) عن سبب ذكر (لكم) في (الفتح) وعدم ذكرها في (المائدة) قوله: إن آية سورة الفتح

(١) ملاك التأويل ١/ ٢٧٤-٢٧٥.

«نزلت في قوم تخلفوا عن رسول الله ﷺ من غير عذر وتأخروا عن الجهاد وقالوا: شغلتنا أموالنا وأهلونا، ثم سألوه ﷺ أن يستغفر لهم، يكتمون بذلك نفاقهم ويظهرون وفاقهم وقصدهم إستمالته كيلا تضرهم عداوته فقال عزوجل:

﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾ [الفتح] فلما كان في قوم مخصوصين احتيج إلى (لكم) للتبيين.

فأما في هذه السورة [يعني سورة المائدة] فإنها لم تنزل لفريق مخصوص دون فريق بل عم بها. دليله أن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً. فلما سيقت الآية إلى العموم لم يحتج إلى (لكم) التي للخصوص «(١)». ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [العنكبوت].

وقوله:

﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [الشورى].

زاد في آية (العنكبوت): (ولا في السماء) (٢) وذلك أن الكلام فيها في سياق تكذيب الأمم لرسولها بدءاً من نوح إلى إبراهيم إلى لوط إلى شعيب وغيرهم، وما حاق بهذه الأمم من العذاب والعقوبات، بخلاف آية الشورى فإنها وردت في سياق ما يصيب الإنسان من مصائب قال تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ (٣) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ... [الشورى].

فلما كان الكلام في العنكبوت في سياق تكذيب الأنبياء ومحاربة الرسل ومعاقبة الله لهؤلاء الأقسام، كان من المناسب أن يزيد لهم في

(١) درة التنزيل ٩٤ وانظر ٤٤٣، البرهان للكرمانى ٤٣٩، ملاك التأويل ٢٤٧/١ وما بعدها.

(٢) في هذه الآية إعجاز علمي إذ إن فيها إشارة إلى أنهم سيصعدون في السماء وأنه سيكون لهم فيها شأن ومع ذلك فهم غير معجزين في السماء كما أنهم غير معجزين في الأرض. وإلا فأين هم من السماء في ذلك الوقت!؟

القول ويبسط لهم في التحدي ويخبرهم أنهم ضعفاء حتى لو بلغوا السماء وصعدوا فيها.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ... ﴾ [المائدة].

وقوله:

﴿ فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا ﴾ [النساء].

فزاد (منه) في آية المائدة، وذلك أن آية المائدة فيها تفصيل وتبيين لأحكام الوضوء كاملة، بخلاف آية النساء فإنها لم تذكر أحكام الوضوء تفصيلاً. فلما فصل وبين في آية المائدة وزاد في ذكر الأحكام زاد الجار والمجرور (منه) للزيادة في التبيين. قال تعالى في سورة المائدة: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوْهُكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة].

وقال في سورة النساء: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا ﴾ [النساء].

فأنت ترى أنه حيث كان السياق مجملاً أجمل في الذكر، وحيث كان مفصلاً مبيناً زاد وبين، فوضع كل تعبير في الموضع الذي هو أوفق له. جاء في (البرهان) للكرمانلي: أنه زاد في آية المائدة (منه) « لأن

المذكور في هذه السورة [يعني النساء] بعض أحكام الوضوء والتميم فحسن الحذف. والمذكور في المائة جميع أحكامها فحسن الإثبات والبيان» (١).

ومثل هذه الزيادة للتفصيل ما جاء في قوله تعالى:

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ (٢١)

[الحديد].

وقوله:

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ ﴾ (١١) [التغابن] فقد زاد

قوله: (في الأرض ولا في أنفسكم) على ما في التغابن، وذلك لأنه فصل في سورة الحديد في أحوال الدنيا والآخرة ما لم يفصله في التغابن، فكان المناسب أن يفصل ويزيد موافقة لما قبلها. جاء في سورة الحديد قوله: ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وِزْنَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتُرْبُهُ مُمْسَكاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ ﴾ (٢١) سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ... ﴿٢١﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ... ﴿٢٢﴾ [الحديد].

ولم يرد مثل ذلك في سورة التغابن قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبئسَ الْمَصِيرُ ﴾ (١١) مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ... ﴿١١﴾ [التغابن].

فأنت ترى أنه فصل وذكر في سورة الحديد ما لم يذكره في التغابن، ولذا زاد في التفصيل في الآية المذكورة موافقة لما قبلها. جاء في (البرهان) للكرمانبي أنه فصل في سورة الحديد وأجمل في سورة التغابن « موافقة لما قبلها في هذه السورة [يعني الحديد] فإنه فصل أحوال الدنيا

(١) البرهان ١٢٨.

والآخرة فيها بقوله ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد] (١) .

وقد يكون الذكر والحذف مراعاة لواقع الحال، فيكون الكلام في غاية الدقة في التعبير عن الحقيقة. فمن ذلك قوله تعالى:

﴿وإن يكذبونك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود ﴿٤٢﴾ وقوم إبراهيم وقوم لوط ﴿٤٣﴾ وأصحاب مدین وكذب موسى...﴾ [الحج].

فإنه قال: (وكذب موسى) ولم يقل: (قوم موسى) كما قال في الأقوام الأخرى، وذلك لأن قوم موسى لم يكذبوه وإنما الذي كذبه فرعون وقومه. جاء في (الكشاف): «فإن قلت: لم قيل: (وكذب موسى) ولم يقل: قوم موسى؟

قلت: لأن موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل، وإنما كذبه غير قومه وهم القبط» (٢).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يبنی اسرائیل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد...﴾ [الصف].

وقوله:

﴿وإذ قال موسى لقومه يلقوهم يلقوهم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم...﴾ [الصف].

فإنه لم يقل في عيسى: (وإذ قال عيسى لقومه) كما قال في موسى: (وإذ قال موسى لقومه) بل قال: (يابني إسرائيل) وذلك أن عيسى عليه السلام لم يكن له نسب فيهم فيكونوا قومه إذ لم يكن له فيهم أب (٣) بخلاف موسى.

(١) البرهان ٤٥٢ .

(٢) الكشاف ٣٥٠ / ٢ .

(٣) معترك الأقران ٥٣٠ / ٣ .



ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٧﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [الشعراء].

ولم يقل: (أخوهم شعيب) كما قال فيمن قبله من الأنبياء: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [الشعراء] ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الشعراء] ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الشعراء] وغير أولئك من الرسل، إلا شعيباً فإنه لم يقل فيه: (أخوهم) وذلك أن شعيباً ليس من أصحاب الأيكة وإنما هو أخو مدين، ولذا قال تعالى: ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الأعراف] بخلاف أصحاب الأيكة. فهو قد أرسل إلى مدين وإلى أصحاب الأيكة جاء في (الكشاف): «فإن قلت: هلا قيل: (أخوهم شعيب) كما في سائر المواضع؟

قلت: إن شعيباً لم يكن من أصحاب الأيكة. وفي الحديث: (إن شعيباً أخا مدين أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة)»<sup>(١)</sup>.

ومن ذلك ما ورد في قصة نوح وهو قوله تعالى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِي إِنَّا لَنَرِيكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الأعراف].

وفي قصة هود قوله: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِي إِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأعراف].

فقد زاد (الذين كفروا) على ملاء قوم هود دون ملاء قوم نوح. قيل: لأنه كان في أشرف قوم هود من آمن به، ولم يكن في أشرف قوم نوح مؤمن، فأخرج المؤمنين من أشرف قوم هود، لأن القائلين هم الذين كفروا منهم. جاء في (الكشاف): «فإن قلت: لم وصف الملاء بالذين كفروا دون الملاء من قوم نوح؟ قلت: كان في أشرف قوم هود من آمن به منهم: مرثد بن سعد الذي أسلم وكان يكتنم لإسلامه، فأريدت التفرقة بالوصف. ولم يكن في أشرف قوم نوح مؤمن.

(١) الكشاف ٤٣٥/٢.

ونحوه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاعِ  
الْآخِرَةِ ﴾ [المؤمنون] ويجوز أن يكون وصفاً وارداً للذم لا غير<sup>(١)</sup>.

وقد يكون الذكر والحذف لغير ذلك، فهناك أسباب مختلفة تدعو إلى الذكر  
والحذف، وكلها ترجع إلى مراعاة المقام وحسن الاختيار وذكر اللفظة في  
الوضع الذي يقتضيها وينادي عليها بأبلغ تعبير وأجمل صورة.

فمن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى  
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء] على لسان جميع الأنبياء الذين جرى ذكرهم في سورة  
الشعراء، فنوح قال لقومه: ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء] وكذا قال هود لقومه (الشعراء ١٢٧)، وكذا قال صالح لقومه (الشعراء  
١٦٤) وكذا قال شعيب (الشعراء ١٨٠) إلا إبراهيم وموسى فإنهما لم يقولوا ذلك.

أما إبراهيم فلأن أباه كان من المخاطبين، قال تعالى: ﴿ وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ  
إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الشعراء] إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون<sup>(٧)</sup> فاستحيا أن يخاطب أباه بذلك.

وأما موسى فلأن فرعون رباه وقد ذكر ذلك له فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا  
وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ [الشعراء] فلا يليق أن يقول له: (وما أسألك  
عليه من أجر). ألا ترى أنه لا يليق أن يقول شخص لأبيه أو لمن رباه وأنفق  
عليه: (لا أسألك أجراً) فانظر إلى جمال الذوق وحسن الاختيار في التعبير.  
جاء في (البرهان) للكرمانى أنه ليس في قصة موسى عليه السلام ذلك « لأنه  
رباه فرعون حيث قال: ألم نربك فينا وليداً؟

ولا في قصة إبراهيم لأن أباه في المخاطبين حيث يقول: (إذ قال لأبيه  
وقومه) وهو رباه.

واستحيا موسى وإبراهيم أن يقولوا: (ما أسألكم عليه من أجر) وإن كانا  
منزهين من طلب الأجرة<sup>(٢)</sup>.

(١) الكشاف ١/٥٥٤.

(٢) البرهان ٣٥٣.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مِمَّا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة].

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَّبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم].

فزاد في آية المائدة: (ياقوم) ولم يذكر ذلك في آية إبراهيم وذلك أنه في آية المائدة عددٌ عليهم النعم الجسماء في أن جعل منهم أنبياء وجعل منهم ملوكاً، وأنه آتاهم مالم يؤت أحداً من العالمين، فحسن نداؤهم بـ (ياقوم) وذلك أن الإنسان يحب أن ينتسب إلى قوم ذوي رفعة ومكانة عالية، بخلاف المستذلين والمستعبدين وهو سياق الآية الثانية.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى أنه طلب منهم أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم فقال: ﴿يَنْقُورُ أَذْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة].

فناداهم بـ (ياقوم) عطفاً لقلوبهم لتحميلهم مهمة دخول الأرض المقدسة وتكليفهم بهذا الأمر الشاق.

أما آية إبراهيم فليس فيها طلب شيء ولا تكليف بأمر، وإنما فيها تذكيرهم بما مر عليهم من محن وعذاب. وفرق بين الحالتين.

ومن جهة أخرى أن سياق قصة موسى في سورة المائدة أطول مما في سورة إبراهيم، فزاد (ياقوم) لمناسبة طول القصة في سورة المائدة. وهذا خط واضح في التعبير القرآني فاقضى كل ذلك هذه الزيادة في سورة المائدة دون سورة إبراهيم والله أعلم.

جاء في (البرهان) للكرمانى أن «تصريح اسم المخاطب مع حرف الخطاب يدل على تعظيم المخاطب به. ولما كان ما في هذه السورة نعماً جساماً ما عليها من مزيد وهو قوله: ﴿جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مِمَّا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ صرح فقال: (ياقوم). ولموافقة ما قبله لما بعده من النداء وهو قوله:

(يا قوم ادخلوا) (يا موسى إن فيها) (يا موسى أنا) ولم يكن ما في إبراهيم بهذه المنزلة فاقصر على حرف الخطاب «(١)» .

ومن لطيف الذكر والحذف قوله تعالى :

﴿ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ يُؤْمِرُكُمْ فِيهَا وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْغَيْبِ ﴾ [التوبة] .

وقوله :

﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّينَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْغَيْبِ ﴾ [التوبة] .

فزاد في الآية الثانية قوله : (والمؤمنون) بخلاف الآية الأولى وذلك أن الآية الأولى في المنافقين ، وهم الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان ولا يعلم المؤمنون بهم إلا من أطلعه رسول الله عليه ، فلم يقل : (والمؤمنون) لأن المؤمنين لا يرون أعمالهم بخلاف الآية الثانية فإنها في طاعات المؤمنين وهي ظاهرة للجميع ففرق بين الجماعتين .

قال تعالى في الطائفة الأولى وهم المنافقون : ﴿ يَعْذِرُونَكَ إِتْيَانَهُمُ الْيَوْمِ لَأَنْ تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ خَبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ يُؤْمِرُكُمْ فِيهَا وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْغَيْبِ ﴾ [التوبة] .

وقال في الجماعة المؤمنة : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة] ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [التوبة] ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة] .

جاء في (البرهان) للكرماني في هاتين الآيتين أن « الآية الأولى في المنافقين ولا يطلع على ما في ضمائرهم إلا الله

(١) البرهان ١٤١ وانظر درة التنزيل ٩٧ ، ملك التأويل ٢٥١/١ .

تعالى، ثم رسوله بإطلاع الله إياه عليهما لقوله: ﴿قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ  
أَخْبَارِكُمْ﴾.

والثانية في المؤمنين. وطاعات المؤمنين وعاداتهم ظاهرة لله ورسوله  
وللمؤمنين. وختم آية المنافقين بقوله: (ثم تردون) فقطعه عن الأول لأنه وعيد.  
وختم آية المؤمنين بقوله: (وستردون) لأنه وعد فبناه على قوله:  
(فسيرى الله)»<sup>(١)</sup>.

وجاء في (درة التنزيل) أن الآية الثانية: « فيمن أمر الله تعالى نبيه ﷺ وهو  
الذي أوجب عليهم الصدقات بأن يقول لهم: اعملوا ما أمركم الله به من  
الطاعات كالصلوات والصدقات فإن الله ورسوله والمؤمنين يرون ذلك، وهذه  
الأعمال مما ترى بالعين خلاف أعمال المنافقين التي تقتضي لهم النفاق  
لإضمارهم خلاف إظهارهم وهو مما لا يرى بالعين وإنما يعلمه عالم الغيب،  
فلذلك لم يذكر المؤمنون في الأولى وذكروا في الثانية»<sup>(٢)</sup>.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ  
مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُنِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ  
لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَلَا يُفْقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا  
كُتِبَ لَهُمْ لِعَجْرِزِهِمْ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [التوبة].

فقد قال في الآية الأولى: ﴿إِلَّا كُنِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ وقال في الثانية:  
﴿إِلَّا كُنِبَ لَهُمْ﴾، وذلك أن الآية الأولى فيها ما ليس عملاً لهم كالظمأ  
والنصب والمخمصة فهذه ليست من أعمالهم غير أنه تكتب لهم أعمالاً صالحة.

أما الآية الثانية فما جاء فيها كله من أعمالهم فالنفقات وقطع الوديان هي أعمال  
لهم ولذا لم يكن ثمة داع إلى القول: (كتب له به عمل صالح) لأنه عمل حقيقة.

(١) البرهان ٢١٤-٢١٥ وانظر ملاك التأويل ٤٧٣/١.

(٢) درة التنزيل ٢٠٣.

ثم انظر إلى خاتمة كل من الآيتين. فقد قال في ختام الآية الأولى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ لأن ما تقدم ليس عملاً وإنما هو من الإحسان الذي تدخل فيه عموم العبادات.

وقال في ختام الآية الثانية: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لأنه من أعمالهم. جاء في (البرهان) للكرماني أن « الآية الأولى مشتملة على ما هو من عملهم وهو قوله: ﴿وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَبِيلًا﴾ وعلى ما ليس من عملهم وهو الظمأ والنصب والمخمصة.

والله سبحانه وتعالى بفضلته أجرى ذلك مجرى عملهم في الثواب فقال: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ أي: جزاء عمل صالح.

والآية الثانية مشتملة على ما هو من عملهم وهو إنفاق المال في طاعة الله وتحمل المشاق فكتب لهم ذلك بعينه. وكذلك ختم الآية بقوله: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لأن الكل من عملهم فوعدهم أحسن الجزاء عليه.

وختم الآية الأولى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ حين الحق ما ليس من عملهم بما هو من عملهم. ثم جازاهم على الكل أحسن الجزاء «<sup>(١)</sup>».

وجاء في (درة التنزيل): « فلما كان ما في الثانية عملهم كتب على جهته لم يحتج إلى أن يكتب به عمل صالح لأنه هو. والأول كان فيه ما ليس بعملهم فكتب به أجر مثل عملهم فلذلك كانت الزيادة في الأولى ولم يحتج إليها الأخرى.

والجواب عن المسألة الثانية وهي تعقيب الأولى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ هو أن من أخبر عنه بأنه أصابه ظمأ ونصب وجوع فقد أخبر عنه بفعل غيره به ولم يخبر عنه بفعل فعله هو. إلا أنه يجب له بما وصل إليه من ألم العطش والجوع والتعب والنصب الأجر، فلذلك عقبه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: من أحسن طاعة الله وتعرض منها لما يلحقه فيه هذه الشدائد.

(١) البرهان ٢١٥-٢١٧.

وأما الآية الثانية وتعقيها بقوله: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فلأن جميع ما ذكر كان عملاً لهم فوعدهم حسن الجزاء على عملهم. وذلك ظاهر والله أعلم»<sup>(١)</sup>.

ومن لطيف الذكر الذي يقتضيه المعنى قوله تعالى:

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ...﴾ [البقرة].

ولم يكتف بقوله: (إنه آثم) بل أسند الإثم إلى القلب وذلك لأن الشهادة محلها القلب وكتمانها هو أن يبقيها في قلبه فنسب الإثم إلى القلب وهو تعبير بديع. جاء في (الكشاف) في هذه الآية: «فإن قلت: هلا اقتصر على قوله (آثم) وما فائدة ذكر القلب، والجمله هي الآثمة لا القلب وحده؟

قلت: كتمان الشهادة هو أن يضمها ولا يتكلم بها، فلما كان إثماً مقترناً بالقلب أسند إليه لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التي يعمل بها أبلغ. ألا تراك تقول إذا أردت التوكيد: هذا مما أبصرته عيني ومما سمعته أذني ومما عرفه قلبي. ولأن القلب هو رئيس الأعضاء والمضغة التي إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله فكأنه قيل: فقد تمكن الإثم في أصل نفسه وملك أشرف مكان فيه. ولثلا يظن أن كتمان الشهادة من الآثام المتعلقة باللسان فقط»<sup>(٢)</sup>.

ومن الذكر الذي يقتضيه المعنى أيضاً قوله تعالى:

﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة، الأعراف ١٦٠].

وقوله:

﴿وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران].

فزاد في الآيتين الأوليين: (كانوا) بخلاف آل عمران وذلك أن آيتي البقرة والأعراف في أقوام قد مضوا وهم بنو إسرائيل، قال تعالى في البقرة:

(١) درة التنزيل ٢٠٥.

(٢) الكشاف ١/٣٠٧.

﴿ وَظَلَلْنَا عَلَيْكُمُ الظَّمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَبِيبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة].

وقال في الأعراف: ﴿ وَظَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الظَّمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَبِيبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف].

وأما آية آل عمران فهي ليست في أقوام ماضين وإنما مثل ضربه الله لكل عصر قال تعالى: ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [آل عمران].

فناسب ذكر (كان) في آيتي البقرة والأعراف دون آية آل عمران . جاء في (البرهان) للكرماني أن ما في السورتين يعني البقرة والأعراف « إخبار عن قوم ماتوا وانقرضوا وما في آل عمران مثل<sup>(١)</sup> » .

ومن الزيادة التي اقتضاها السياق قوله تعالى:

﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا... ﴾ [القصص].

فقد ذكر الزينة بخلاف قوله تعالى:

﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا... ﴾ [الشورى].

وقد ورد ذكر الزينة في القصص لورودها فيما بعد في قوله تعالى: ﴿ فَخَرَّجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ... ﴾ [القصص] بخلاف سورة الشورى فإنها لم يرد فيها مثل ذلك .

جاء في (معترك الأقران): « فإن قلت: ما وجه زيادة (الزينة) في هذه الآية على آية الشورى: ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾؟

والجواب لورود ذكرها في قوله تعالى: ﴿ فَخَرَّجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ فالتحمت الآية بتلك القصة. ولم يرد في سورة الشورى من أولها إلى آخرها



حال ذنبوي لأحد بل تضمنت حقارة الدنيا ونزارة رزقها وأنه مقدور غير مبسوط. وتلك حال الأكثر»<sup>(١)</sup>.

ومن الزيادة التي اقتضاها السياق قوله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة].

وقوله:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران].

فقد زاد في آل عمران: (ولا ينظر إليهم) بخلاف البقرة وذلك لسببين:

الأول: أن آية البقرة في الذين يكتمون ما أنزل الله ويشترون بكتمانهم هذا ثمنًا قليلًا. وأما آية آل عمران فليست في الذين يكتمون بل في الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا وهو ذنب أكبر وأعظم من مجرد الكتمان. إذ هم لم يكتموا الحق فقط بل غيروه وأقسموا على ذلك واشتروا به ثمنًا قليلًا. فهم لم يكتفوا بالكتمان بل تجاوزوه في دعم الباطل، فلما زادوا في الذنب زاد الله لهم في العقوبة فقال: (ولا ينظر إليهم).

والسبب الثاني: أن السياق في آل عمران في الوفاء بعهد الله فقد قال قبل هذه الآية:

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران]. وليس الأمر كذلك في البقرة فقد سبق هذه الآية الكلام على الميتة والدم ونحوها قال: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ ﴾ [البقرة].

(١) معترك الأقران ٤٢٢/٣.